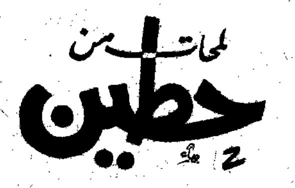

لمحات
من
حطين
محمد جلال كشك

إن أمة تستحي أن تقرأ تاريخها
أمة لا تستحق ... الحياة


لمحات من
حطين
2

الطبعة الأولى / يونيـو ١٩٨٥

غلاف / محمد عزام

سَوف تبقى القدس قرآنًا وسيفًا ..

مقدمة

هذه الدراسة كتبها في عام ١٩٧٠ الكاتب الكبير الاستاذ محمد جلال كشك لتصدر في إطار التعبئة الفكرية للثورة الفلسطينية ونعنى حركة فتح ذاتها ولم تنشر إلا في عام ١٩٧١ في مجلة المسيرة التى كانت تصدر عن الدائرة العسكرية التابعة للحركة في ذلك الوقت . وقد نشرت هى وغيرها من الدراسات دون أن تنسب لكاتبها ولا داعى الآن لذكرَ الأسباب . إلا أن الذى نريد أن نؤكده أن الأخ جلال وهو كاتب غنى عن التعريف خير من غمس قلمه في تراث أمته لذلك أنجز الروائع الجادة التى عاشت في ضمير الأمة لأن الذين يحسنون غمس أقلامهم في تراث أمتهم هم وحدهم القادرون على استنهاضها .. ودفعها قدما للخروج من مأزقها أما أولائك الذين لايحسنون غمس أقلامهم إلا في الزبد فلن يقدموا لها إلا السراب . ولقد جاهد الاستاذ بقلمه سرا وعلانية في اطار مسيرة الثورة الفلسطينية ويكفي كتابه « الثورة الفلسطينية .. محاولة للفهم » الذى صدر عام ١٩٧١ والذى يعد بحق خير كتاب أعطى « لفتح » حقها ، وهو كتاب جاصرته قوى التزيف التى أرادت ألا تسمع إلا أصواتها النشاز ، التى أسلمتنا في النهاية لحراب الطائفين في لبنان وسوريا . لذا لم يأخذ الكتاب حقه من الانتشار .

ونحن الآن في « لجنة القدس » يسعدنا أن نعيد طباعة هذه الدراسة « لمحات من حطين » لنؤكد أن حطين الثانية على الأبواب .. إنها حقيقة تصرخ في قلوب المؤمنين بأن نصر الله آت ، وأن وعد الله حق .. وأن وعد الآخرة سيشرق فجره وسندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة تحت

رايات التحرير والنصر رغم أنف أناشيد الاستسلام التي باتت زبدا طافيا سيذهب جفاء ، أما الجهاد والاستشهاد ، أما تحرير القدس ودحر الغزاة فهو آت لا ريب فيه ، يحسبونه بعيدا ونراه قريبا « حتى إذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا صدق الله العظيم .

لجنة القدس

من معاركنا

لمحات من حطين

لم تكن حطين إلا كلمة النهاية .. في ملحمة كاملة استمرت قرنين من الزمان ... ملحمة متعددة الفصول بدأت بغزوة استعمارية عنصرية ، قوضت أوضاعا عربية متمزقة منهارة .. وشهدت تحمل الجماهير لمسئوليتها في الدفاع عن أرضها .. ثم ظهور القيادة الجديدة التي قادت الأمة في حرب المصير ، وحققت لها النصر .. واقتلاع الوجود الغريب من أرضنا .. ومع فصول هذه الملحمة نعيش .. نستقرى التجارب .. ونتعلم من تراثنا .

★ ★ ★

بعد انتهاء العدوان الإسرائيلي في سنة ١٩٦٧ بما بدا انه النصر النهائي لإسرائيل واستقرارها إلى الابد في أرض العرب .. ذهب المنتصر اسحاق رابين في جولة في أوروبا ؛ حيث احتفت به كل الدوائر الاستعمارية والعنصرية ، وبقايا النازيين ، وعصابات المستعمرين الفرنسيين في الجزائر ، ومسرحيى الفرقة الأجنبية والمرتزقة البيض الذين قاتلوا في الكونغو وموزمبيق .. وكل الذين جندوا أنفسهم للقتال ضد حرية الانسان حيثما كان في العالم الثالث ..

وفوجىء جمهور المحتفين بالأسرائيلي المنتصر ، ينذرهم بأن إسرائيل مهددة بالزوال ، وأن الطريقة الوحيدة لاستمرارها هى استمرار تدفق الامداد عليها من منبعها ، استمرار تدفق الأموال والرجال .. وأعلن في الاحتفال الذي عقد في بازل ، احتفالا بالذكرى السبعين للمؤتمر الصهيوني الأول ، أن مصير إسرائيل سيكون نفس مصير مملكة أورشليم ، التي أقامها الصليبيون في القدس منذ ثمانية قرون انذرهم بأن مصير إسرائيل هو الزوال إذا ما وقع الغرب في نفس الغلطة التي لرتكبها مع مملكة الصليبيين عندما ظن أنها استقرت وانتصرت فقطع معونته عنها ، فكان أن ابتلعها المحيط العربي ...

هذا الشبه بين الغزوة الصهيونية في القرن العشرين ، والغزوة الصليبية في القرن الحادي عشر .. شبه يلاحظه كل دارس للتاريخ ، والمتتبعين لأهداف الغزوتين وطابعهما وأساليبهما ...

وهو تشبيه يثير غضب الصهاينة فيصرون دائما على نفيه .. إلا عندما يحتاجون لاثارة تعصب اليمين الغربي وعنصريته فيعترفون له بالحقيقة ..

إن الغزوة الصليبية مع ماكلفته للجنس البشري من آلام ، وما أورثته من مرارة واحقاد ، وما احدثته من انحراف في العلاقات الانسانية بين الشرق والغرب ، ماتزال آثاره حية إلى اليوم ... إن هذا الاعصار المجنون الذي اجتاح الحضارة وأثار احط الغرائز الشرية ودفع مليون مقاتل إلى مغادرة أوروبا إلى فلسطين .. هذا الاعصار قد انحسر ، ولم يترك وراءه إلا الخراب والدمار .. ولم تبق من آثاره إلا بقايا قلاع مهدمة .. أو ذكريات مذابح وحشية عبروا فيها عن تخلفهم الحضاري .. وهذا هو

المصير المحتوم الذي ينتظر الاعصار المعاصر .. اعصار الصهيونية الذي يجتاح اليوم فلسطين والأرض العربية للمرة الثانية ...

وهناك أوجه عديدة بين الاعصارين أو الغزوتين .. شبه بين الغزاة ، وشبه بين ظروف المنطقة عندما وقع الغزو .. وشبه بين ظروف وخصائص ظهور القيادة الجديدة التي تحطم ليل الهزيمة والانكسار وتبعث روح المقاومة في الأمة ..

شبه بين ظهور قيادة صلاح الدين ، وظهور الثورة الفلسطينية .

١ ـ التشابه بين الغزاة

مليون مقاتل صليبي (وهو رقم هائل بالنسبة لتعداد السكان في هذه الفترة) تدفقوا على فلسطين باسم هدف ديني هو استخلاص اورشليم (القدس) من الكفرة الوثنيين .. ووقف اضطهاد المسيحيين .. مليون مقاتل ، جاءوا من كافة بلدان أوروبا لا تجمعهم رابطة من لغة قومية ، إلا رابطة التعصب الديني ولا تربطهم أى صلة بفلسطين ، ولا يملكون أى حق فيها إلا الادعاء الفارغ بوجود رابطة دينية تربطهم بها وأن هذه الرابطة تبيح لهم ابادة سكانها ، واغراق الارض المقدسة في الدم والحديد والنار مدة قرنين من الزمان .. كان ضحاياها خمسة ملايين انسان ، قتلوا بدون اسلحة القتل الجماعي وقبل اكتشافها .. أى أن كل قتيل من هذه الملايين الخمسة قد احتاج شخصيا إلى ضربة سيف أو طعنة رمح أو ضربة سهم أو إنهيار جدار لكي يموت ...

نفس الطابع يميز الغزوة الثانية ، حيث يأتي إلى فلسطين غزاة من شتى بلدان العالم ، لا تجمعهم أى رابطة ، ولا يوحدهم أى عامل إلا عصبية دينية وادعاء فارغ بوجود حق ديني في فلسطين ، يبيح لهم ابادة شعبها واغراق المنطقة في حرب لا نهاية لها إلا بزوال كل آثار الغزوة الثانية تماما كما انتهت الغزوة الأولى ..

كانت الجماهير الأوروبية في الغزوة الأولى تحركها هلوسة متعصبة ، وأحلام عن الأرض التي تفيض لبنا وعسلا ، وتحرير بيت المقدس .. وإقامة مملكة السماء على الأرض ليعود السلام والرخاء ... وكان ملوك الاقطاع والامراء والفرسان ، وتجار اوروبا تحركهم دوافع مختلفة تماما ، يبحثون عن أرض جديدة يستغلونها ، والقاب وممالكات ينشئونها ونهب لثروات الشرق وسيطرة على تجارته التي يسيل لها لعاب المستغلين في أوروبا والمغامرين وراغبي الثراء ..

والفرسان يطلبون ساحات للحرب يظهرون فيها بطولاتهم ، ويمارسون هواياتهم وفنهم الوحيد في القتل نفس الظاهرة اليوم ، إذ يساق اليهود للقتال على موسيقى تحرير القدس ، وبناء مملكة صهيون ، بينما لاتحرك الصهيونية الا الاهداف الاستعمارية والتطلع إلى بناء امبراطورية اسرائيلية واستغلال بترول الوطن العربي ..

نفس الالفاظ تقريبا نجدها في الدعاية الاستعمارية للغزوتين : الحديث عن ارض الميعاد وتخليصه من مغتصبيه (الذين هم العرب) والرسالة الحضارية التي تتحقق بإبادة البرابرة (الذين هم نحن) .

واورى افنيري النائب اليهودي الذي يرفض تشبيه رابين مملكة

صهيون الجديدة بمملكة أورشليم الصليبية في القرن الحادي عشر .. ويستنكر توقعات رابين على وحدة المصير للغزوتين .. هو نفسه الذي يلاحظ أوجه الشبه بين تاريخ الغزوتين المجنونتين .. فهو يقول إن التشابه بين التجربة الصليبية ، والتجربة الصهيونية كان حقا .. وطريف !

فهيرتزل هو البابا أربان :

المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ يقابله مؤتمر كليرومنت عام ١٠٩٥ صيحة : هيا نذهب ياأولاد يعقوب تعادل صيحة : الله يريدها ..

والحقيقة أننا نستطيع أن نتتبع هذا التشابه الذي يشير إليه افنيرى على سبل الطرافة !! .

فهيرتزل كان يريد في سنة ١٨٩٧ أن يقيم في فلسطين مخفرا أماميا للحضارة الأوروبية ضد بربرية آسيا ، ويريد أن يخلص الأرض المقدسة من البرابرة المغتصبين لها ، من أصحابها الشرعيين : يهود المانيا والنمسا !!

كذلك كان يدعو أربان الثاني المتطوعين الصليبيين إلى القتال :

(لا للاستيلاء على مدينة واحدة) (بل لامتلاك أقاليم آسيا بأجمعها مع غناها وخزائنها التي لاتحصى ، فانتهزوا هذه الفرصة وخلصوا الأراضي المقدسة كلها من أيدي مختلسيها ، وامتلكوها انتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الأرض كما قالت التوراة : تفيض لبنا وعسلا ، أيها الجند .. أنتم الذين كنتم ضحية الشرور والفتن .. اذهبوا الان وأزيحوا البرابرة .. اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار .)

وكانت لهم هم أيضا إسرائيلهم الكبرى فيقرر لامونت أن الصليبيين كانوا يعتبرون كل سورية هى أرض الميعاد ولا أصحاب لها ..

وقد رفض العرب هذا الادعاء الديني للصليبيين .. وكانت التسمية التي أطلقها المؤرخون العرب والجماهير والقيادات العربية هى : الفرنجة .. فهم لم يسمونهم مسيحيين ولا صليبيين .. رافضين بذلك ادعاءاتهم الفارغة عن رسالة دينية يقومون بها .. مميزين في نفس الوقت (بهذه التسمية) بين الغزاة العنصريين ، وبين المسيحيين المسالمين المتضامنين مع اخوانهم المسلمين العرب .. مبرزين أيضا الطابع الحقيقي للصدام .. فهو بين الفرنجة .. الاستعمار الغربي ، وبين المشارقة .. هذه التسمية الواعية المجردة من العنصرية أو التعصب الدينى ، تؤكد وعى أمتنا وطابع حضارتنا .. وهو يتكرر اليوم في اطلاق ثورتنا تعبير (**الصهيونية والصهيونيين**) .. إذ تؤكد ثورتنا بهذه التسمية الطابع العنصري الاستعماري للغزوة الثانية .. وأيضا الوعى الحضاري والتحرري للثورة الفلسطينية ..

تميزت الغزوتان بالابادة الوحشية للعرب .. الرغبة في الاستيلاء على البلاد خالية من السكان .. بوهم التخلص من مقاومتهم .. وتغيير التكوين البشري للمنطقة .. ففي الغزوة الأولى نجد نفس السلوك الاسرائيلي في مذابح دير ياسين وكفر قاسم .. فعندما دخل الصليبيون القدس .. كتب مؤرخهم يفتخر بأن خيل الغزاة كانت تسير في بحر من الدم تجاوز ركب الخيل .. وفي بلبيس في مصر استولى الفرنجة على بلبيس بعد مقاومة ضعيفة من سكانها .. لم تدم أكثر من ثلاثة أيام ... وكان جزاؤهم من الغزاة المنتصرين أنهم ذبحوا كل طفل وأمرأة ورجل وقع في قبضتهم ...

ثم أغار الفرنجة على ريف مصر فلم يتركوا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال ... وارتكبوا من الفظائع ماتقشعر له الابدان وتنخلع له القلوب ..

هذه الوحشية التي تميزت بها الغزوتان ، وانفرد بها عن سائر الحروب ، حتى الاستعمارية ترجع إلى الطابع الاستيطاني الذي يميزهما .. فالاستعمار الاستيطاني يقوم أساسا على إبادة شعب الوطن المستعمر .. ولا يقبل وجودهم ولو في وضع استغلال وعبودية ..

كانت غزوة الفرنجة الأولى استعمارا استيطانيا كاملا .. بل لعل العرب الذين ولدوا في القرن الثاني عشر كان يصعب عليهم أن يصدقوا أن عكا وطرابلس وحيفا .. كانت يوما ما عربية خالصة . فقد تحولت إلى مدن اوروبية ، وقامت فيها احياء كاملة يقتصر سكانها على ابناء مدينة من مدن اوروبا .. وكانت اوروبا .. مؤمنة ببداية هذا التحول ، حريصة على تأكيده وتغذيته ، وكانت السفن تنقل باستمرار عشرات

الالوف من الرجال وكميات هائلة من السلاح ، لتأكيد هذا التحول ، النهائي ، للأرض المقدسة التي أصبحت أرضا لاتينية .. لشعب لاتيني .. ولكن المحيط العربي سرعان ما أكتسح الغزاة ، وغسلت الدماء العربية شواطئنا واعادتها عربية كما كانت .. إلى حد أنه كان يستحيل بعد عشر سنوات .. فحسب من قهر الغزاة أن يصدق الناس أنه كانت هنالك ممالك وامارات ودول كاملة غريبة اللسان ، غريبة الوجوه .. غريبة الانتماء ..

وفي سنة ١٩٦٧ اعلنت إسرائيل تحرير القدس إلى الابد ، .. ونسيت أنه في سنة ١١٠٠ أعلن اسلافها من الغزاة أنه قد تم (تحرير) القدس بصفة نهائية ، وإنها تحولت إلى الابد إلى مملكة لاتينية وأنه سيبقى هكذا إلى أن تبيد الأرض .. أو يبيد الصليبيون .. وطبعا كان الحل الثاني هو الأسهل وتكفلت به القوى العربية ...

وقد اخطأت بعض القوى العربية منذ ٩٠٠ سنة فهم الطبيعة الاستيطانية لاستعمار الفرنجة .. (كما يخطيء بعض الاحفاد اليوم) فحاولت أن تقوم بدور العمالة له أن تعيش في كنفة وحمايته .. تحت وهم (سلامة المستسلمين) والعيش في حمايته مادامو لايكنون للغزاة أية نوايا عدوانية .. فإن هؤلاء الغزاة سيبادلونهم سلاما بسلام .. وبذلك تبقى ممتلكاتهم في سلام ، ولو إجتاح الطوفان الأرض العربية والشعب العربي من حولهم .. ولكن هذه النوايا الاستسلامية لم تفدهم في شيء ...

فقد ظل أمير دمشق يوصف بأنه الحليف الوحيد للصليبيين بين أمراء المسلمين في بلاد الشام حتى فوجيء بهجوم شامل شنته قوات

الغزاة على المدينة في تموز ١١٤٨ .. ولم ينقذها من الاحتلال والابادة إلا هبة المدن والويات العربية لنجدتها ..

ورغم الادعاءات التبشيرية التي تلفحت بها الغزوة الصليبية الأولى فإنها كالغزوة الصهيونية الثانية لم يكن الدين عندها رسالة أو تطلعا هداية الناس بل مجرد مفهوم عنصري يمنحها امتيازا خاصا لمجرد انتمائها لهذا الدين ، ويعزلها عن الآخرين ، ويبرر لها جرائمها ضد الآخرين ..

وكما ترفض الصهيونية اليوم ، اعتناق الآخرين لليهودية ، أو حتى انتماء يهودي لم ينحدر دمه كله من الدم اليهودي المقدس .. ومن منابع يهودية صافية .. كذلك نجد أن الفرنجة قد رفضوا عروض بعض الجماعات التي طلبت الدخول في عقيدتهم .. بل كان ردهم ، هو ذبح الوفد الذي تقدم بعرض الاندماج في الغزاة .. أصرارا على الانقسام ، وتأكيدا للطابع الاستيطاني الذي لم يتبدل ابدا منذ ابادة الهنود الحمر وسكان استراليا وافريقيا الجنوبية وروديسيا .. إلى الغزوة الصهيونية المعاصرة .. وهو مقاومة كل محاولة من جانب أصحاب البلاد المنهزمين ، ولو لقبول مصير الاندماج في الغزاة المنتصرين .. مقاومتها بالتشريع والقانون وأساسا بالسلاح .. هذا الاتجاه العنصري المصر على التمييز وابادة أصحاب البلاد والذي كشفته حادثة ذبح وفد المفاوضة في الاندماج .. تؤكده أيضا قصة الفارس الأخضر الذي أعجب به صلاح الدين . فعرض عليه التعايش والاقامة دون أن يشترط عليه تغيير دينه .. ولكنه رفض العرض مؤكدا بصراحة العصور الوسطى ، الطبيعية الحقيقة لهؤلاء الغزاة فقال : لقد جئت لاحارب الشرقيين لا لاتعايش معهم ..

فالغزاة يرفضون التعايش مع الشعوب المحتلة .. يرفضون اندماج هذه الشعوب فيهم .. وطبعا يرفضون اندماجهم هم في هذه الشعوب .. ومن ثم لايبقى أمام الشعوب من خيار إلا الفناء أو القتال حتى النصر .. والشعوب التي بقيت هى التي اختارت القتال ..

ومنطق الغزاة واحد .. فكما يرى الصهيوني اليوم في دفاع الشعب الفلسطيني عن أرضه ومقاومته للرصاص والنابالم الاسرائيلي ، عملا عدوانيا .. وترويعا للآمنين وتهديداً السلام !!! ويرى في العربي المدافع عن حياته .. وحشا كاسرا يتهدد المدنية ويسبب الآلام للشعب الاسرائيلي المسالم الجالس بهدوء داخل الفانتوم ... نفس المنطق كان يسيطر على الغزاة الفرنجة منذ ٨٠٠ عام .. فهؤلاء الغزاة الذين جاءوا من شتى أقطار أوروبا .. يحتلون بلادنا ، ويخوضون في دمنا إلى افخاذ خيولهم .. يدهشهم أن ندافع عن أنفسنا ويتألمون للغاية لاننا نضطر إلى قتلهم قبل أن يقتلوننا ..

تم تحرير القدس في المرة الأولى سنة ١١٧٨ وسقط أسرى الذين افتخروا بالخوض في دماء شعبنا .. اطلق صلاح الدين اسر فتاة فرنسية ، ولكنها بدلاً من أن تشكر اخلاقياتنا وتقارن بين الجرائم التي ارتكبها قومها فوق أرضنا .. وبين سماحة سلوكنا ونبل اخلاقنا .. ملكها الغضب وتقدمت من محررها من الاسر البطل صلاح الدين وهى تصرخ : أيها المجرم السفاح لقد قتلت أبي وأسرت أخوى .. فلم يعد لي عائل .. وها أنت تمن على بالحرية كيما يزداد بلائي .. !!!

لم تتوقف لحظة لتتساءل ماالذي جاء بأبيها وأخويها من فرنسا إلى فلسطين ؟ تماما كما لا يفكر مذيع راديو إسرائيل وهو يتحدث عن قنابل

(المخربين) . ماالذي جاء باليهودي البولندي والروماني والامريكى إلى مرمى قنابل (المخربين) وبأى حق ماداموا قد وضعوا أنفسهم في مرماها .. بأى حق يحتجون إذا ماصيبو ؟ ..

ولكن صلاح الدين لايغضب من شتائم الفرنسية بل يقول لها .. : أما أبوك فقد قتل في حرب هو الذي أشعل نارها واعتدى بها على القوم الآمنين .. وأما أخواك فانى أطلق سراحهما اكراما لامرأة في حاجة إلى العائل المعين ...

واعتذرت الفتاة وسألها البطل المنتصر .

ــ إلى أين أنت ذاهبة .. ؟

وانزاحت الغشاوة عن عينيها .. واعتدل المنطق .. بفعل الهزيمة العسكرية لاطماعها وبفعل المعاملة النبيلة لجيوشنا المنتصرة .. فقالت :

ــ إلى بلادي .

سألها : وماذا ستقولين لقومك ..

قالت : أقول لمتعصبيهم كلمة الحق في الاسلام والمسلمين ..

ورأى امرأة المانية تصرخ وتصيح فسأل عنها فعرف أنها قد فقدت ابنها فأمر بالبحث حتى وجدوه وأعطاه لها وهو يقول : خذيه ، ولاتربيه على بغضنا .. فنحن لسنا .. وحوشا مفترسة ، ولكننا ندافع عن حقنا وارضنا ..

وإذا انطلقنا مع أوجه الشبه فسنجد الطابع الوحشى لكل منهما ، وعدم احترام القوانين الدولية واستخدام الاسلحة المحرمة .. فليس الصهيونيون وحدهم الذين يستخدمون النابالم ، ويخرقون

الاتفاقيات الدولية التي تنظم الحروب ومعاملة الاسرى والمدنيين .. بل أيضا الفرنجة الأوائل .. كانوا لايعترفون باتفاقية أو تعهد بل استخدموا السهم المحرم استخدامه وقتها وهو السهم المعروف بالزمبرك .. ولم يتركوا سلاحا في أوروبا إلا جاءوا به .. ولا تورعوا عن تخريب أو تدمير ..

ونجد أيضا ظاهرة البحث عن الآثار .. والتفتيش في الحفريات عن اسانيد تبرر احتلال البلاد وانتزاعها من يد الاحياء .. هذه الهواية التي يدعيها الصهاينة اليوم .. قد ورثوها عن أسلافهم الغزاة الذين جاءوا في القرن الحادي عشر .. فهم أيضا قد وجدوا مطمورا في رمالنا ما يؤكد أحقيتهم في بلادنا وتأييد السماء لهم في احتلالها .. فرغم وجود الحربة المقدسة في القسطنطينية ، ومعرفة ..

الجميع بذلك واتفاقهم على هذه المعرفة عدة قرون .. استطاع الصليبيون أن يجدوا ذات الحربة (!!) بعد الحفر تحت كنيسة القديس بطرس ..

واستدلوا من ذلك أنَ السماء كلفتهم بالاستيلاء على فلسطين !!

ونجد صورة من خلافات اليوم في إسرائيل بين الصهاينة المتدينين .. والصهاينة العلمانيين في الخلاف الذي نشب بعد احتلال الفرنجة للقدس .. فالذين حركوا الحرب ، وأثاروا التعصب ، وجندوا الجماهير باسم اهداف دينية .. كان من المنطقي أن يطالبوا بإقامة دولة دينية تتويجا للأهداف التي ساقوا الجماهير من أجل تحقيقها ، وتبريرا للدماء التي أريقت ، وتدعيما لسيطرتها ، واستمرار لاستغلالها لعواطف

الجماهير .. أما القيادات العسكرية والمدنية . فقد كانت تتطلع إلى التحقيق العلني للاهداف الحقيقية وهى الغزو والاستعمار والتسلط .. لذا طالبت بحكم مدني .. وكما هى العادة في كل الكيانات العدوانية ، أمكن الوصول إلى تسوية فاتفق على أن القدس ولو أنها مدينة الرب .. إلا أنها تحتاج إلى حاكم مدني .. يدير شؤونها الدنيوية .. !!

. نلمس أيضا خاصية من خصائص هذا الاستعمار العنصري الذي يقوم على التمييز والتفرقة .. فهو لايضطهد الشعوب المستعمرة وحدها ، بل لابد له من ممارسة التمييز العنصري على مستويات عديدة ، فكما نرى اليوم من تفرقة بين اليهود الغربيين ويهود شرقيين .. كذلك نجد الغزاة الصليبيين قد مارسو تمييزا عنصريا ضد المسيحين الشرقيين سكان البلاد بل حتى الذين جاءوا معهم كغزاة من الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فقد كانت الافضلية والسلطة والامتيازات من حق الفرنجة الغربيين ، بعكس الصليبيين الشرقيين فهؤلاء كانت لهم المرتبة الثانية ..

تشابه أوضاع المنطقة :

ولكن الشبه بين الغزوتين يقودنا إلى سؤال مرير .. سؤال شبيه بذلك الذي سترده الاجيال العربية المقبلة بعدما يتم تحرير أرضنا .. وكيف استطاعت عصابات المهاجرين الصهاينة أن تتسلل إلى قلب الوطن العربي .. بل وتقيم فيه دولة تهدد كل الدول العربية .. التي تفوقها عددا بعشرات المرات .. ؟؟

تماما كما نتساءل نحن اليوم .. كيف استطاعت جموع الغزاة

القادمين من أوروبا ، أن يحتلو الأرض العربية في القرن الحادي عشر بل وأن يقيموا دولا وامارات فوق أرضنا تعيش في قلب الوطن العربي والمحيط الاسلامي .. مايقرب من قرنين ؟؟؟ كيف أمكن ذلك ؟

والجواب واحد .. أنه خمود الحس وسيطرة الغفلة .. والعجز عن ادراك خطورة الغزاة .. وتخدر كاذب تحت تأثير الاطمئنان لضخامة العالم الاسلامي ، واتساع وقوة العالم العربي .. والعجز عن ادارك الحقيقة التى تقول إنه في الصدام ، لاتقاس قوى المتصادمين بالامكانيات النظرية أو الحسابية ، بل بالامكانيات المتاحة فعلا للدخول في الصدام . فالوطن الاسلامي كان يمتد فعلا من المحيط الاطلسي إلى المحيط الهادي .. ولكنه لم يحرك ساكنا لنجدة القدس عندما سقطت في يد الفرنجة ..

والامارات العربية كانت بالعشرات .. ولكنها بدت خاوية كأنما تسكنها اشباح ، وسيوف الفرنجة تفتك بأخوتهم عند حدودهم .. بل كانت كل أمارة تقف ساكنة حتى يفرغ لها الغزاة فيهاجمونها . !! أكان خدر الاحساس بالتفوق وأن الكثرة العددية ، يدفعان العرب لرفض أى تصور لاحتمال انتصار هؤلاء الغزاة ، فضلا عن تصور إمكانية استقرارهم على أرضنا ..

وقد بدأ العجز عن فهم خطورة هذه الغزوة ، لا في التقاعس عن مواجهتها ، بل وفي تفكير بعض القوى في استغلال الغزاة لتحقيق اطماعها هذه .. صراعاتها الغبية ضد الامارات العربية الأخرى .. أو لخدمة محاور وخلق محاور جديدة تزيد من تمزيق الوضع العربي ..

كان الوضع في المنطقة قد وصل حدا من التمزق والانهيار جعل من العسير على هذه القيادات المهترئة ادراك أن الخطر الوافد أكبر من كل انشقاقاتهم .. وأخطر من كل أطماعهم ، واجدر بالاهتمام من أحقادهم الصغيرة .. وخلافاتهم التافهة ..

وذلك هو التفسير الوحيد لاستطاعة الغزوة القادمة من وراء البحر والمتخلفة حضاريا أن تنفذ في الجسم العربي .. وتستقر فوق أرضنا قرنين من الزمان .. إنها نفذت في جسد قد فقد رغبته في المقاومة قبل أن يفقد قدرته عليها ...

القيادات العفنة :

وإذا قلبنا الصفحات السود للغزوة الأولى .. سنجد أن الجماهير التى رزحت طويلا تحت حكم وسيطرة الطبقات والقيادات المهترئة العفنة .. وتحملت استغلالها .. واستبدادها وجبروتها على مواطنيها .. توقعت منها أن تهب لاداء مهمتها التاريخية وهى الدفاع عن الأرض التي تستغلها .. ولكن الجماهير دفعت ثمن ثقتها في هذه القيادات .. فكانت الانهيارات التي ترجع إلى الصدمة النفسية التي أصابت الجماهير بفعل الثقة الخاطئة التى وضعت في غير محلها . فلما اكتشفت مدى انهيار هذه القيادات .. كانت الصدمة .

فالجماهير في طرابلس كانت تقاتل ضد الحصار الصليبي المتفوق ، وصمدت الجماهير وهي تنتظر وصول الاسطول الفاطمي من مصر .. أكبر دولة عربية وقتها وصاحبة السيادة على الشام (وفي

صبيحة يوم تناقلوا نبأ وصول سفينة خاصة قادمة من مصر تحمل رسولا خاصا من الخليفة الفاطمي ، وتطلعوا إلى السفينة والرسول يتوقعون نجدة أو تعليمات خاصة فيما هم فيه .. فإذا بهم يعرفون أن مهمة الرسول الخاص هى البحث عن فتاة جميلة بلغ صيتها القاهرة فأرسل الخليفة يطلبها .. كما يطلب كمية من أخشاب المشمش تصلح لصنع عود لزوم الفرقة الموسيقية بقصر الخليفة ؟؟) ..

وكانت الصدمة النفسية العنيفة التي أدت إلى تخاذل الجماهير عن القتال ، وسقطت المدينة في يد المحاصرين فهذه الجماهير التي وضعت ثقتها خطأ في القيادات المهترئة .. ارتكبت خطأ افحش عندما تخلت عن القتال لمجرد افتضاح حقيقة هذه القيادات ... ولكنها كانت مجرد مرحلة طبيعية ، انتقلت الجماهير من الثقة الخاطئة في قيادات عاجزة .. إلى السلبية واليأس .. ثم تخطتها سريعا إلى مرحلة تحمل المسؤولية .. ثم مرحلة الالتفاف حول القيادة الجديدة التي ستنبثق عنها حركة الاحداث ..

الجماهير :

وثارت الجماهير في بغداد حيث كان الأمل في مبادرة الخليفة .. إلى نسيان خلافه مع القاهرة الفاطمية والمبادرة إلى الاتحاد ضد الغزاة .. فقد اجتمعت الجماهير يوم الجمعة وحطموا المنبر ، وانزلوا الخطيب عنه .. ونادوا بوجوب القيام بالجهاد ، ومنعوا الناس من الصلاة ، معلنين رفضهم رياء أولئك الذين يتركون بيت المقدس يسقط في يد الاعداء ويكتفون هم بارسال لحاهم واطالتها ... والنحيب على المنابر ..

وعندما وصل رسول الامبراطور البيزنطي إلى بغداد يعرض التحالف ضد الصليبيين أحاطت الجماهير السلطان : (الحاكم في بغداد باسم الخليفة ، وصاحوا في وجهه : أما تتقي الله .. أن يكون ملك الروم أكثر منك حمية على الاسلام .. حتى أرسل يستحثك على مجاهدة الفرنجة !!!

وهكذا بدأت الجماهير تتحرك .. أحست أنها افتقدت القيادة القادرة على قيادة كفاحها في اللحظة العصيبة ، ولكنها لم تفقد الايمان ولا فقدت الاصرار على حقها في أرضها ووطنها ..

وسرعان ما استعادت الجماهير قدراتها ومبادرتها عندما تخلت عن أوهام الأمل في نجدة القيادات المهترئة .. فبعدما سقطت عكا وانهارت حاميتها ، تحول شعبها كله إلى شعب من الفدائيين يهرب الاسرى ويخفى المتسللين ويؤمن وصولهم إلى المناطق غير المحتلة ..

وعندما أفضت السياسة الخانعة لأمير دمشق إلى وقوعها تحت الحصار وتعرضها للاجتياح . تبين الشعب أن أميره سلمه للضياع بوهم سياسة المسالمة مع الغزاة .. هب الشعب يتحمل مسؤوليته ويدافع عن مدينته ضد الغزاة وضد الخطأ الاجرامي لحكامه ... وشهدت المدينة جهادا جماعيا اشترك فيه حتى الكهول والائمة والفقهاء وكان لمقاومتهم الفضل الأول في هزيمة العدوان واجبار الغزاة على فك الحصار ونجت المدينة ...

وعندما قبلت القيادات العفنة الاستسلام وقبلت التسوية التي فرضتها قوات الغزاة المنتصرة ، بل وقبلت الخلافة في مصر أن تدفع جزية

لمملكة القدس اللاتينية ، مائة الف دينار في كل عام .. رفضت الجماهير أن تعترف بهذه التسوية وانطلقت تقاتل ضد الغزاة المنتصرين والعملاء المتخاذلين ..

بل نجد أن القيادة الجديدة ذاتها ظلت فترة اسيرة حسن الظن بالقيادات المهترئة فصلاح الدين يكتب لشاور يقسم له أنه لا أهداف له إزاء الحكم في مصر .. وأنه لا يطلب إلا السماح له بالمرور للقتال ضد العدو الذي يغزو مصر

ويغريه بأن هذه فرصته الذهبية للقضاء عليهم بعدما طالت خطوطهم وصعوبة تموينهم .. إذ أصبحوا في أعماق مصر (عند المنيا) ...

ولكن هذا العرض قابله شاور الوزير المصري بقتل رسول صلاح الدين بل وابلغ محتويات الرسالة للصليبيين ، بل واخذا في تنسيق الخطط معا .. مما أثار الجماهير ودفعها إلى الالتفاف حول القيادة الجديدة وانزال هزيمة ساحقة بالغزاة والعملاء ، ولعل صلاح الدين عندما بلغه نبأ اعدام رسوله قد خامره احساس المرارة ، الذى خامر الفدائيين الفلسطينيين عندما قاموا بعملياتهم الأولى في فاتح ١٩٦٥ ثم عادوا إلى حيث يستقبلهم رصاص العرب واجهزة مخابراتهم .. بل ماهو أنكى من الرصاص .. حملة العداء والتشهير لعل نفس الاحساس شعر به صلاح الدين ، وهو ينصرف عن الاسكندرية بعدما دافع عنها ضد الغزاة الفرنجة وضد ضربات وطعنات جيش عربي مسلم توجه له من الخلف ، وهو يدافع عن مدينتهم .. وقد بلغ من حرارة الموقف أن صلاح الدين بعدما

فك الحصار عن الاسكندرية ، وهزم الفرنجة والطابور الخامس الذي كان يطعنه من الخلف .. بلغ من مرارة الموقف أن صلاح الدين قرر ألا يعود مرة أخرى إلى مصر ..

ولكنه انفعالا وقتيا .. فسرعان ما اكتشف صدق نية الجماهير في الدفاع عن وطنها .. ولعل صلاح الدين قد خفف من مرارته .. مارآه من تغلغل الروح الثورية في الاجيال الجديدة حتى مستوى الطبقات الحاكمة .. فإن شاور الخائن أراد أن يدبر مؤامرة يفتك فيها بالقيادة الجديدة التي بدأت تبرز في الواقع العربي كأكبر قوة قادرة على مواجهة الغزو ولكن ابن شاور يعترض طريقه ويهدده باعلان تآمره ..

فيحاول أبوه المتآمر أن يغريه ويهدده فيقول له إن هذه القيادة الجديدة أن لم نتخلص منها الآن فسنقتل جميعا .. ويرد عليه ابنه والله لئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية .. خير من أن يملكها الافرنج فهؤلاء ما أن يسمعوابفتكك بهم حتى يعودوا فورا لاحتلال هذه البلاد .. وعندها لن ينجوا احد ..

والله أنى أفضل أن أكون تحت امرة أمير من قومنا خير من أن أكون في حماية صديق من الفرنجة فهذا الصديق الحامي لن يلبث حتى يصبح عدوا ماسنحت له الفرصة ..

ولا يقتصر الشبه في الأوضاع التي صاحبت الغزوتين .. على انهيار وتمزق القيادات الحاكمة .. بل نلاحظ ظهور حركات سرية وارهابية غريبة مشبوهة المنابع .. مدانة في أهدافها .. مثل حركة الحشاشين التي كانت تشكل خطرا مميتا على صلاح الدين ربما أكثر من

كل الاخطار التي شكلها قتاله ضد الصليبين فقد لجأ الحشاشون إلى اسلوب الاغتيالات والارهاب والعمليات التي ترضى حالة الجماهير النفسية المتردية التي تسمح لها بنسج الاساطير والحديث عن معجزات ستحل الأزمة بغير قتال .. وفي نفس الوقت كانت تربطها صلات مشبوهة وتحركها أطماع أهداف تجعلها واقعيا في صف الاعداء ...

وتعددت مؤامراتهم ضد صلاح الدين .. بل نجح احد الحشاشين في الوصول اليه وضربه بالخنجر في رأسه ولولا الخوذة لأصابه اصابة قاتلة . وكان صلاح الدين وحده في الخيمة عندما اندفع ثلاثة منهم لقتله لضمان النجاح .. والغريب أن هؤلاء المنفذين كانوا أدوات في يد زعيم الحشاشين ومن يعمل لحسابهم وكانوا يتفانون في الاخلاص له ويتسابقون على تأدية المهام الموكلة لهم بحماسة وشجاعة نادرتين افتقدتها امتنا في مقاتلة العدو ..

وإذا كان نجاح نزول الصليبين على شواطئنا يرجع في أحد أسبابه إلى الخلافات الفكرية والمذهبية التي مزقت الجماهير .. فإن بقاء هذا الغزو على أرضنا قرابة قرنين ، يعود إلى تحول هذه الخلافات والانقسامات على المستوى الفكري إلى انقسام تنظيمى ، لم يكن كله يدور حول الخلاف الفكري ولا كان ينبعث من المصادر العربية وحدها ..

القيادة الجديدة :

وسرعان ما بدأت الجماهير تحس بظهور عامل جديد في الساحة .. قيادة جديدة .. قوى جادة في مقاتلة الغزاة .. وامتحنت

الجماهير هذه القيادات في المعارك وفي حياتها اليومية .. في الحرب والسلم .. في علاقتها من الاعداء .. في علاقتها من الجماهير .. في موقفها من القرى العربية الأخرى .. فأدركت أنها قيادة من نوع جديد .. ومن نسيج يختلف تماما عن نسيج القيادة التي صنعت الهزيمة .. ماهى المميزات التي وجدتها الجماهير في القيادة الجديدة فمنحتها حبها وادي إلى التفافها حولها ، عبرت عن ايمانها بها بما في صفوفها من طاقات أدهشت الغزاة .. وكتبت سطور النهاية لغزوهم ..

إن الجماهير اكتشفت ذاتها وقدراتها وأهدافها في القيادة الجديدة .. وهذه هى نقط التحول الحاسمة فإن القيادة الجديدة لاتصنع النصر وحدها بل تصنعها الجماهير ، التي تكتشف اصالتها وقد رأتها من خلال التطلع إلى المثل الذي تضربه القيادة المنبثقة منها .. فقد ظهر الفدائيون المصريون لأول مرة عندما انحاز شاور وزير الخليفة الفاطمي إلى الفرنجة .. ضد جيش صلاح الدين ، الذي جاء لتحرير بلبيس .. عندما نظم الفلاحون في منطقة بلبيس ، انفسهم في جماعات فدائية تغير أثناء الليل على معسكرات الغزاة والمتعاونين معهم فينزلون بهم خسائر فادحة في الأرواح والمعدات ..

توحيد الجماهير

وأول انجازات القيادة الجديدة هي توحيد الجماهير ، فعلى صعيد الجماهير المسلمة ، انهى صلاح الدين التأزم الذى كان يمزق الجماهير بين المذهبين الشيعى والسنة . عندما فرض احترام جميع المذاهب .. وكفالة حرية الاعتقاد للجميع .. وعلى صعيد علاقات المسلمين بمواطنيهم من غير المسلمين .. وجد أن الطابع العنصري لغزوة الفرنجة يهدد بتمزيق وحدة الجماهير ، وكان الغزاة يحاولون الاستفادة من الصيغة الدينية لحربهم بإثارة العنصرية في الجماهير مستغلين في ذلك عنصرية وتعصب القيادات المهترئة التي مارست قبل الغزو ، التفرقة العنصرية .. فلما جاء الغزو ثبت أن تعصبها لا ينطلق من عقيدة ولا غيرة على الاسلام ، بل كانت هذه القيادات بالذات هى التى ساومت العدو المخالف لدينها.. وسلمته البلاد وتعاونت معه.. وذلك ماجعل الجماهير غير المسلمة تفرق بين سلوك هذه القيادات وبين التعاليم السمحة للاديان .. وترفض مؤامرات التفرقة والدس .. فما جاء صلاح الدين يحقق المواطنة الكاملة لكل عربي بصرف النظر عن دينه تحققت وحدة الجماهير ، وانطلقت طاقاتها ، وعبر المواطنون المسيحيون عن محبتهم لصلاح الدين بوضع صورة في الكنائس .. وقال الشاعر :

فحطو بارجاء الهياكل صورة

لك اعتقدوها كاعتقاد الاقانم ..

بل واطلقوا اسمه على دير السلطان في القدس .. عندما حررها من الغزاة الفرنجة ورده اليهم .. وهذه الحادثة وحدها تكشف كل الزيف في ادعاءات الغزاة العنصرية فالدين انتزعه الغزاة من اصحابه المسيحيين العرب .. ورده اليهم صلاح الدين .

وعندما حاولوا الاتصال بالاقباط المصريين رد عليهم زكريا بن ابى المليح القبطي المصري .. نحن جميعا مصريون وهؤلاء اخواننا وبلادهم بلادنا ، والدين لا يفرقنا إذ نحترم دينهم ويحترمون ديننا ، وما انتم بأحق بنا منهم ، فحتى الدين لا يجمعنا واياكم ، فإن مذهبكم يختلف عن مذهبنا ، فليس يجمعنا بكم شيء ..

احست الجماهير أن تغيرًا حقيقيا قد وقع ، وهى تقارن بين سلوك القيادة المنهارة تطلب فتاة جميلة وآلة موسيقية من طرابلس المحاصرة .. وبين سلوك القيادة الجديدة التي تقول :

(إننى استحى من الله أن ابتسم والفرنجة يحاصرون دمياط) .

الجماهير التي اكتشفت تفسخ القيادات القديمة .. ورأت انهيارها وعجزها عن مقاومة الغزو الاجنبى بل فضلت الخيانة والمساومة حفاظا على استمرار ترفعها ولو تحت حماية المحتل الاجنبى .

هذه الجماهير استطاعت أن تربط بين هذا السلوك في مواجهة اعداء الوطن ، وبين أسلوب الحياة الذي عاشته هذه القيادات .. وأصبح لديها معيارا حقيقيا لتحديد مدى جدية وصلابة وقدرة القيادات على تأدية مسؤوليتها التاريخية .. وما كانت لتثق بقيادة جديدة تمارس

نفس اسلوب الحياة المنحل المترف الذي عاشته القيادات المنهزمة .. مهما صاحت باسم الجهاد ضد العدو ..

فلما رأت قيادة صلاح الدين .. ورأت اسلوب حياته ، وسلوكه في السلطة أدركت أن فيه تتجسد كل أحلامها ، كل قيمها ، كل تطلعاتها للقيادة المجاهدة ...

رأت في اخلاقيات القيادة الجديدة النقيض الكامل لاخلاقيات وسلوك القيادات المنهزمة .. هذا التناقض الذي روع رسولا جاء من قبل القيادات المنهزمة .. فرأى صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط وتحته سجادة ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة وإلى جانبه زرديته وسيفه وقوسه وجعبته ، معلقة في عمود الخيمة قال الرسول : هذا هو المنصور .. لانني فارقت سيف الدين والامراء وهم على الطنافس والحرير ، والخمور تراق . والطبول تعمل ، وليس في خيامهم خيمة إلا فيها أنواع المحرمات ...

هذا الأمير الغارق في الخمر والترف هو نفسه الذي فاوض الفرنجة للتعاون معهم ضد صلاح الدين وتعبيرا عن حسن نيته ازائهم اطلق لهم جميع الاسرى من الفرنجة !! ثم طواه التاريخ تحت ركام الفرنجة المنهزمين .. وبقيت خالدة القيادة المجاهدة ...

رأت الجماهير سلوكا جديدا في هذه القيادة التي تعزل وزيرها لانه بنى لصلاح الدين قصرا في قلعة دمشق ويقول صلاح الدين للوزير الذي عزله .. هذا منزل لا يصلح لمثلى أبدا ، أن منزلي دائما خيمة

تعصف الرياح من خروقها ، وأنها لاحب إلى نفسى من هذا القصر وغيره من زخارف الدنيا ..

أن الجماهير التي تلمس هذا التقشف الحقيقي من أقوى حاكم في عصره .. وسلطان أكبر مملكة ، لايمكن أن تشك في جديته .. واصراره على احراز النصر ، فليس في حياته مايغري بالمساومة .. استبقاء له ..

أدركت الجماهير بغريزتها أن القيادة المخلصة هى التي تدرك أبعاد المعركة ادراكا جادا ، وتقدر خطورتها ، وتكون احرص على انجاز النصر من أن تبدده بأنانيات فردية .. أو شهوة مجد .. لذلك التفت حول صلاح الدين وهى تراه يبعث إلى الامراء المتنابذين المتصارعين من حوله ، والى خليفة بغداد الغارق في أوهامه واطماعه وعجزه ، ينبههم إلى السكين التي تنفذ في احشاء وطنهم ، ويدعوهم إلى الوحدة لانقاذ انفسهم وسلطانهم . ويقول أن مايعنيه هو الاجر عند الله حتى ولو كانت أعماله تنسب لغيره ..

لنا الاجر ولا يضيرنا أن يكون لغيرنا الذكر ..

وينبه إلى أن الخطر إن لم يتجه العزم إلى قلعة .. وإلا نبتت عروقه ، واتسعت خروقه والمراد الآن هو كل مايقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ويجمع الأمة ، ويحفظ الالفة ويضمن الرأفة ويفتح بقية البلاد .

بل تصل القيادة الجديدة إلى الذروة ، وفي نفس الوقت تهوى القيادات المنهارة إلى الحضيض عندما عرض صلاح الدين على خليفة بغداد أن يتنازل له عن القيادة .. على أن يأتي ويقود المعركة بنفسه لعل وجوده يثير حماسة الجماهير التي مازالت تؤمن بالخليفة ومكانته .. مما

يسهل النصر ويعززه .. ولكن تناقضات واطماع وأنانيات امراء الولايات في العراق والشام جعلهم يرفضون هذه الخطوة ، خوفا من أن يؤدي خروج الخليفة وانتصاره ، إلى زيادة نفوذه فيصفيهم .. ونفس الدوافع جعلت الخليفة يجبن عن المواجهة وعن القتال دفاعا عن المؤمنين الذين يسمى نفسه أميرهم .. وعن البلاد التى يصر على اعتبار نفسه خليفة عليها .. ويدعي له على منابرها .. رفض القتال ولكنه تعطف وأعطى صلاح الدين تصريحا بنهب أموال التجار باسم التبرع للمجاهدين .. ورفض صلاح الدين هذا التفويض .. لأنه يعلم أن هذه الاساليب هى التى مزقت المجتمع وأدت إلى انهياره أمام العدو الاجنبى .. بل أن من أهم الانجازات التى حققتها القيادة الجديدة هى احترامها للقانون وتأمينها المواطنين والغاء كل عمليات النهب والابتزاز التي كانت تمارسها القيادات المنهارة باسم الدفاع عن الوطن الذي ضيعته ...

ويمكن أن يقول التاريخ اليوم إن خليفة بغداد لو قبل اقتراح صلاح الدين وخرج إلى قيادة الجيوش الاسلامية وقاتل الصليبيين .. لادى ذلك إلى تجديد قوى مجتمعه ، وامتحان لكافة قواه وربما انقذ ذلك الخلافة من السقوط والانهيار التام أمام غزو التتار.. ولكن انتصر القائد الذي كان يشفى من المرض . إذا ما ركب للجهاد ...

هذه القيادة هى التي أزالت وصمة العار عن الشرقيين ، ومحت الذل عن العرب وردت اليهم سمعتهم البطولية .. فإن انتصار الغزو الافرنجى السهل وتغلغل الغزاة في البلاد وسط مقاومة هشة ، وانهيارات بشعة للفئة الطافحة عند السطح .. أثار نعرة عنصرية عند الغزاة تقوم على الايمان بانحطاط الشرقى وتفوق الجنس الغربى عليه.. فاحتقروا

الشرقيين ، وتحدثوا عن جبن العرب وانحطاطهم جسديا وخلقيا ..

وفي المرحلة الأولى من غرور النصر ، كان الفرنجة يفسرون تفوق أي فرد عربي ، يفسرونه بوجود دماء افرنجية في عروقه ، ويخترعون اساطير حول أب افرنسى أو المانى أو انجليزى لابطال العرب ومشاهيرهم .. الذين لاسبيل إلى انكار تفوقهم ومن ثم فقد كانت الطريقة الوحيدة المتاحة هى انكار عروبتهم .. الصورة تنقلب تماما بعد انتصارات صلاح الدين ، بعد أن ازاح صدأ العار عن معدن الانسان الشرقي .. وتبدت تحت قيادته بطولة امتنا وخصائصها النبيلة.. انقلبت الصورة فأصبحت الاساطير تنسج في أوروبا عن آباء وامهات عرب لكل أبطال أوروبا ومشاهيرهم — بل أصبح هؤلاء المشاهير ذاتهم يروجون هذه الخرافات عن أنفسهم .. بين جماهير لم يفتنها إلا ماهو شرقي ، أو على الأقل به دماء شرقية !!

استطاعت القيادة الجديدة أن تفجر كل طاقات الجماهير وتجندها لخدمة المعركة فظهرت لأول مرة وحدات من الاشبال الذين يتسللون إلى معسكرات العدو ، ويسرقون السلاح ، بل ويأسرون الاولاد ليبادلوهم بأسرى المسلمين .. ويقومون بنقل الاخبار والرسائل ... ونشر الذعر والرعب في صفوف الاعداء بغارات مفاجئة على مؤخرته وهو منشغل في القتال بل واشتركت النساء في تحرير القدس .. وقام صلاح الدين بعسكره المجتمع كله ، وفرض اقتصاديات الحرب .. وكانت هذه هى الطريقة الوحيدة التي تضمن تحرير الأرض وتصفية الغزو .. كما مكنته من الاستمرار في القتال مكنته من اتباع سياسة انهاك العدو .. دون أن يخشى من انهيار جبهته هو .. لأن المجتمع الذي تحول إلى مجتمع

محارب يستطيع أن يتحمل سنوات الانهاك ويقهر عدوه بصموده .. لذلك لم يكن صلاح الدين في عجلة للالتحام بروح المقامر .. لأنه لم يكن قلقا على جماهيره ولا على مدى تحمل نظامه .. بل كان يتصرف بحساب وخطوات مدروسة .. وعندما نضجت الظروف ورأى أن كل عوامل النصر قد اكتملت .. كانت المعركة الفاصلة في خطين حيث قذف بكل قواته وضرب العدو الضربة القاضية استطاعت قيادة صلاح الدين أن تجند حتى البترول العربي في المعركة !! .. فاستخدم جيشه البترول المصري والعراقي في القذائف المشتعلة التي سببت خسائر فادحة للعدو ..

وفي ظل القيادة الجديدة ومن خلال المواجهة ، تطورت الامكانيات التكنولوجية للمقاتلين فقد استطاع ابن عريف النحاسين وهو شاب دمشقي اسمه على .. أن يحرق الابراج الالمانية التي أرهقت جيش صلاح الدين .. كانت ابراجا ضخمة مبطنة بالجلد المبلل بالخل والطين لكى لا تحترق . ويمكن أن يقف أكثر من خمسمائة مقاتل فوق البرج الواحد .. وعجز مهرة الصناع عن احراقها ، حتى تقدم الفتى الدمشقي فقذفها أولا بالنفط حتى ابتلت به من كل جانب ، ثم رماها بسهم مشتعل فاحترقت .. ورفض مكافأة صلاح الدين قائلا .. إن مافعلته لوجه الله .. ولا أريد مكافأة إلا منه ..

التفوق الحضاري :

إن القيادة الجديدة التي أحرزت النصر .. قد عكست طبيعة التناقض التاريخي بين القوى الوطنية التحررية ، وبين الغزاة المتسعمرين .. أن الغزو الاستعماري لا يمكن أن يقهر إلا بحركة وطنية تحررية تعبر عن تفوقها الحضاري على الغزاة ، بما تطرحه من قيم ، وسلوك متفوق على سلوك العدو ..

وبقدر ماعبرت غزوة الفرنجة عن انحطاط ولا انسانية الغزاة المستعمرين ، وهي صفات عامة يخضع لها سلوك المستعمرين مهما اختلف الزمن ، ومهما حققت البشرية من تقدم .. لان الغزو الاستعماري نكسة للتطور البشري ، لابد أن تعكس نكسة سلوكية .. نكسة اخلاقية .. حتى ولو كان الغزاة يأتون من مجتمع . متحضر . وأكثر تطورا من المجتمع المتعرض لغزوهم .. ولعل ذلك يفسر لنا السلوك اللا انساني لقوات الاحتلال التي تنتمي إلى بلدان تعد متطورة ومتحضرة وسلوكها يختلف إلى حد بعيد داخل بلادها .. ولكنها عندما تقوم بالمهمة الانسانية ، تسلك سلوكا لا انسانيا ..

وبنفس الدرجة فإن القوى الوطنية التحررية تمتاز عبر كل العصور بتفوقها السلوكي .. حتى ولو كانت من بلدان يقال عنها بأنها أقل تطورا لانها تمثل حركة التاريخ إلى الامام .. تمثل شوق الانسانية إلى اخلاقيات افضل .

وفي غزوة الفرنجة الأولى (الصليبية) كانت العوامل إلى جانب ابراز تفوقنا ، فمجتمعاتنا كانت ، وقتها ، هى الأكثر تحضرا ، وقضيتنا هى العادلة .. وقد تجسد تفوقنا الحضاري في سلوك قيادة صلاح الدين .. إذ أنه احتفظ بكل تقاليد الفروسية والشرف والنبل .. في مواجهة عصابات لاتلتزم بأى مبدأ .. ولا ترى غدرها وخيانتها (للشرقيين) جريمة اخلاقية ..

ولكن هذا الانحطاط عجز عن جر صلاح الدين إلى هاويته .. بل سما بسلوكه وأجبر كل المؤرخين . مهما كانت عصبيتهم ، وعنصريتهم على الاعتراف بتفوقه الحضاري .. ويكاد المؤرخون اليوم يجمعون على أن صلاح الدين ، لو اتبع انتصاره في حطين بسياسة ولو مشابهة لأسلوب الغزاة .. فاباد من وقع منهم تحت سلطانه .. وانتهز فرصة الهزيمة التي نزلت بهم فنقض جميع اتفاقياته وشن عليهم حملة استئصال ، ربما كانت حطين هى نهاية المعارك ونهاية الوجود الصليبي في الشام .. ويسجل المؤرخ (لامونت) : لم يظهر صلاح الدين طوال حربه ضد الدول اللاتينية (الصليبية) ، بمظهر المتعصب الديني ، وكان حلمه وشهامته مثار اعجاب معاصريه ، وموضوع مدح المؤرخين منذ عصره فطالعا ، وقد أبدى في معاملته لشعوب البلدان المفتوحة من ضبط نوازع النفس واحترام الناس ماكان مباينا كل المباينة للقسوة المتعارف عليها في حروب العصور الوسطى ، وكانت سياسته القاضية بايصال اللاجئين من بلاد الصليبيين المحتلة إلى معقل الصليبية في صور ، سياسة نبيلة إلى حد الحماقة ، لانها أدت إلى تحشد اعدائه ، ومن ثم منعه من احتلال صور ..

ونفس الملاحظة سجلها المؤرخون المسلمون .. ولكن مهما انتقد المؤرخ العسكري الذي يعيش جو المعركة ، بمحدوديته وتوتره ، مهما انتقد بعض المواقف والتصرفات التي تستند إلى قيم اخلاقية .. ولكنها قد تسبب خسائر عسكرية في حينها .. إلا أن هذه النظرة ضيقة وجزئية ذلك أن القيم الاخلاقية والانسانية هى المنطلق الحقيقي لحروب التحرير . وهى التي تعطيها شرعيتها وتضمن حتمية انتصارها ، لانها تعبر عن الحتمية والأمل الموجهان لمسيرة الجنس البشري .. أى انتصار القيم الاسمى والاخلاقيات الانبل ..

ولو أننا اخضعنا التاريخ البشري لتقييم لايقوم إلا على النصر العسكري .. وأى الاساليب اقدر على الايقاع بالخصم ، لاستوت في ذلك كل الحروب ولأصبح تاريخ البشرية ، مجرد تكرار ولو بوسائل أكثر وحشية ، لتاريخ الحيوانات المفترسة .. البقاء للاقوى .. والاقوى هو الاطول نابا .. والاقدر على القفز الغادر .. ولكن الحروب الوطنية لا تمتاز فقط بنبل اهدافها ، بل وأيضا بنبل وسائلها .. ومن هنا كان دورها في دفع عجلة التاريخ إلى الامام ونقل البشرية إلى مرحلة أرق ..

قد يكون (صلاح الدين) قد خسر معركة أو اجل النصر العام الشامل عدة سنوات ، وحرم نفسه من سعادة تحقيقه في حياته ، بسبب سلوكه النبيل ، واخلاقياته المتفوقة على عدوه ، ولكنه انتصر انتصارا ساحقا عبر التاريخ كله لاعلى تلك الجماعات والجنود والمستعمرات التي عكرت صفو التاريخ بضع سنين بل انتصر على كل القيم والاخلاقيات التي مثلها خصمه .. انتصرت حضارة على حضارة .. وقيم على قيم .. ومجتمع على مجتمع ، عندما شهد التاريخ بتفوقنا الحضاري ...

حطين

وتبرز عبر التاريخ كله معركة حطين ، باعتبارها نقطة التحول التي انهت غزوة الفرنجة الأولى ، وبداية زوال وجودهم .. صحيح أن الصليبيين بقوا بعد ذلك في أرضنا قرنا آخر ولكن المؤرخين على حق في اعتبارهم (حطين) هي الفاصلة . فإن ذلك البقاء لم يكون إلا ذيول النهاية ففي حطين تقرر مصير الأرض ، وقال التاريخ كلمته .. لا بالنصر العسكري الساحق وحده .. بل بانتصار الأمة على كل عناصر ضعفها ، تخلصها من كل الأوهام حول طبيعة الغزاة .. وتبينها قدرتها على المواجهة بتفوقنا على طبيعة القيادة التي تقودها إلى النصر .. والتفافها حولها ، وقتالها تحت رايتها . من هنا تنبع أهمية حطين .. ففيها عبرت الأمة عن ارادتها في المقاومة وقدرتها عليها .. ومن هنا تبرز حطين كقمة شاهقة في التاريخ ، كاحدى المعارك المصيرية التي أبقت الشام عربية إلى الابد ، بل أبقت الوطن العربي كله عربيا .. فلو استقر الغزاة في الشام ، لانطلقوا كما حاولوا عدة مرات ، لغزو واستيطان كل الاقطار العربية ..

بدأت المعركة يوم ٣ تموز بزحف الجيوش الصليبية إلى طبرية .. واغتبط صلاح الدين وهتف مرحبا بالجهاد والنصر .. وحسم القتال يوم ٤ تموز بهزيمة ساحقة .. حتى أن الجندي من جيش صلاح الدين كان يسحب خلفه في حبل واحد أكثر من ثلاثين اسيرا من فرسان الفرنجة وابطالهم .. وروى جندي آخر يحرس وحده أكثر من مائتى أسير من

أبطال الفرنجة الذين كانوا ينشرون الرعب .. ويتباهون بعدد رؤوس المدنيين العزل الذين قتلوهم ..

انهارت الاسطورة العسكرية ، ورأت الجماهير التي عاشت قرابة المائة عام تحت سطوة الغزاة رأتهم يسيرون مقيدين في الحبال ويفرون يطلبون النجاة .. ويلقون أسلحتهم مستسلمين صارخين يطلبون الابقاء على حياتهم .. ثم يجلون عن المناطق المحررة ، ويشكلون طوابير لاجئين ولكنها تجلو هذه المرة في حماية ورعاية الجيش المنتصر وليس تحت ارهابه وعدوانه الغادر .. كما فعلوا هم بطوابير اللاجئين في فترة انتصاراتهم ..

كانت حطين هى أول هزيمة ساحقة تنزل بالغزاة .. وكانت ثمرتها الخالدة هى تحرير بيت المقدس .. استرداد القدس .. اشتركت النساء والاشبال في جيش صلاح الدين الذى فتح القدس وتم التحرير في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ليلة الاسراء .. فصلى الجمعة في المسجد الاقصى .. وأرسل فأحضر المنبر الذي كان قد صنعه نور الدين بن محمود ونذره للقدس ولكنه مات قبل فتح القدس .. فلما انتصر تلميذه صلاح الدين ، بعث فجاء بالمنبر ونصبه في المسجد الأقصى ، وهو المنبر الذي أحرقه اليهود أحساسا منهم بوحدة الهدف ووحدة المصير مع الغزوة الصليبية وظنا منهم أن حرق المنبر الذي كانت إقامته رمزا للنصر يمكن احراقه ضمانة لعدم تكراره .. وعندما رفرفت رايتنا على المدينة المقدسة ، عادت اليها قدسيتها ، وتسامحها ، وأصبحت حقا مدينة الجميع .. وأمر صلاح الدين باباحة سكناها لجميع الطوائف ...

ويسجل المؤرخون : كان الفرق واضحا بين معاملة صلاح الدين

للمدنيين من الافرنج ، ومعاملة الافرنج للمسلمين .. قبل ذلك بثمان وثمانين سنة ..

بل وعاد اليهود إلى القدس .. بعدما كانوا قد طردوا منها وحرم عليهم دخولها .. عادوا في ظل رايتنا المتسامحة .. زار الشاعر اليهودي الاسباني القدس .. وقال : **إن اليهود أفادوا من جو الحرية الدينية .. الذي شاع في عهد صلاح الدين .. فلجأت إلى القدس جماعات كبيرة من اليهود ، وفدت اليها من جميع انحاء العالم ..**

ورفض البطل المنتصر نصيحة قدمت له بهدم الاماكن المقدسة غير الاسلامية ، وهى الأماكن التي في نظر الناصحين يتذرع بها الغزاة ويثيرون حولها هذه المشاكل .. فرفض مؤكدا رسالة حضارتنا . وهى حماية كل ماتعتز به الانسانية ، وكل مايؤمن الانسان ، حمايته من التخريب .. ومن التعصب ومن إثارة النعرات حوله ..

بل عندما جاء عيد الميلاد في غمرة انتصاره بعد فتح القدس .. فوجىء بقايا الفرنجة في المدينة بالقائد البطل والسلطان المنتصر .. صلاح الدين .. يطوف بنفسه على بيوتهم يهنئهم بالعيد ، ويقدم لهم الهدايا ..

الوهم :

ومع ضربات صلاح الدين .. وعلى ايقاع خطوات جيشه المنتصر .. وعلى ضوء سلوكه المتفوق في بيت المقدس .. تبددت أوهام الغزاة وبدأ الفرنجة يفكرون من جديد .. في حقيقة رسالتهم .. عندما

رأوا الاماكن المقدسة مفتوحة للجميع ، وحرية وأمن الزائرين يكفلها سلطاننا ..

بدأوا يتساءلون هل اراد الله حقا أن تكون فلسطين للفرنجة ؟؟ وهل حقا اختصهم الله بها .. واحتفظ بها لجيوشهم حتى تأتى وتستردها .. ودار جدل واسع في أوروبا طوال سنوات عديدة حول هذا السؤال ، ولكنه لم يكن بالجدل الضار مادام يدور بعيدا عن أرضنا ..

وبغير انتصارات صلاح الدين .. بغير ضربات سيوف جنده ، ماكان العقل الافرنجي ليفيق من أوهام الرسالة المقدسة أو يفكر في حقيقة المهمة التي اغرقت بلادنا في الدم وجلبت الخراب الشامل لمنطقة كانت من اخصب بلاد العالم وأكثرها حضارة وازدهارا .. فعاشت قرنين من الزمان وسيلة المدافعين هي حرق المدن ، ووسيلة الغزاة هي الابادة الشاملة واستئصال السكان .. هذا الخراب الذي امتص حيوية المنطقة والقاها في التخلف ..

البطل يموت :

لم يشهد صلاح الدين جلاء آخر جندي من الغزاة .. بل عاش بعد حطين وتحرير القدس ، أياما عصيبة شهد فيها سقوط عكا ، وابادة شعبها .. وشهد تدفق الغزاة من جديد .. ولكنه كان يدرك بايمان المجاهد ووعي الخبير ، أن هذه ليست أكثر من صحوة الموت .. والطعنة الاخيرة من وحش جريح يدرك أنه يموت .. لم يشهد صلاح الدين نهاية الغزاة ولكنه هو الذي اصدر الحكم بالنهاية .. وبقى على التاريخ أن ينفذ حكم البطل ..

أعطى أمته الثقة بالنصر .. وعلمها كيف تقوى عليه .. وكيف تحرزه .. وإذا كان حتما أن يموت البطل .. فقد بقيت امته خالدة .. عاش البطل في خلود امته .. عاش في مشاعر الجماهير التي أحبته حبا لم تحبه لقائد قبله ولا منحته لقائد بعده .. تفنى الاجيال وتتبدل الدول .. ويبقى هو خالدا .. يهتز قلب كل عربي عبر التاريخ كلما سمع كلمة صلاح الدين .. اسم اصبح البطولة .. القدرة .. النصر .. الوفاء .. حطين ذكرى انتصار أمة على الفناء .. ما من معركة أخرى تعادلها في تاريخ الأمم وعندما مات البطل احصوا ثروته فوجدوها أقل من دينارين ..

وقبل أن يغلقوا القبر عليه جاء القاضي .. يحمل سيف البطل .. ووضعه إلى جانب جثمانه .. وهو يقول : خذ .. هذا سيفك تتوكأ عليه في الجنة .

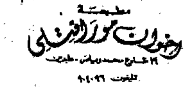
وبكت الجماهير فما أعظم قيادة تخرج من الدنيا لا تملك إلا سيفها .. وماأروعه طريقا إلى الجنة .. رواده لا يتوكؤن فيه إلا على السيوف ......

المراسلات

لجنة القدس

١٧ شارع عبد الحميد سعيد ـ متفرع من طلعت حرب شقة ٢٣ ت : ٧٥٥٦٧١

رقم الايداع ٨٥/٤٥٨٨



هـــذه المختـــارات

« على طريق القدس » سلسلة من الدراسات والكتب القيمة نتخيرها في « لجنة القدس » لنقدمها شموعا على طريق العيون المشدودة للقـــدس .. قدس الاسلام ارض السلام .. مدينة المدائن .. وهى ستشمل دراسات حول معارك دارت رحاها على أبواب القدس .. أو على طريقها ، وقادة استشهدوا على أرض القدس .. أو على أرضيتها ، وكتب ومقالات تنطلق من تراث هذه الأمة ومن عقيدتها .. تؤشر باتجاه القدس .. بهدف إيداع منهل عذب تنهل منه الأجيال المؤمنة بأن القدس قدسنا .. والأقصى مسجدنا ، وأن وعد الله بالنصر آت لا ريب فيه .. إنه جدول نحاول أن نضيفه إلى كل الجداول السلسالة التى تغذى في أمتنا روح التحدي والجهاد لتنهض من كبوتها وتخرج من متاهتها ، لتستقيم على الطريق القويم . والصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وسنحاول جهدنا أن نحشد لهذه السلسلة الأقلام المؤمنة بمنهج الله .. عقيدة وسلوكا وحضارة ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، إن طموحاتنا كبيرة وآمالنا في الله أكبر ، لقد بدأنا رحلة الأتقان لأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ، صدق رسول الله ، وأنت ولاشك معنا في هذه الرحلة بما تملك من قدرات وامكانيات لأن القدس مثلما هى محتاجة للساعد والسيف محتاجة ايضا للكلمة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها في كل حين . بأذن الله وتوفيقه .

الناشر